هوامش

يحظى جامع عمرو بن العاص بأهمية تاريخية ودينية وتراثية متفردة باعتباره أول المساجد التي أنشئت بعد الفتح الإسلامي لمصر وأفريقيا، واللبنة الأساسية لمدينة القاهرة

كان للجامع أهمية روحية كبيرة للمصريين عبر التاريخ (محمد حسام/ فرانس برس)

جامع عمرو بن العاص

مرحلة الترميم الأخير

ياسر غريب

دخل ترميم جامع عمر بن العاص وتطوير الساحة الملحقة به مراحله الأخيرة، وذلك ضمن عملية التطوير القائمة بمنطقة الفسطاط الأثرية لإعادة تأهيلها، حيث يحظى جامع عمرو بأهمية تاريخية ودينية وتراثية متفردة باعتباره أول المساجد التي أنشئت بعد الفتح الإسلامي لمصر وأفريقيا، واللبنة الأولى التي تأسست عليها مدينة القاهرة الإسلامية. افتتح الجامع للصلاة للمرة الأولى سنة 20هـ/641م؛ حينذاك لم تكن فنون العمارة الإسلامية نضجت بعد، وكان الهدف الوحيد هو بناء مسجد بسيط يصلي فيه الجنود المتمركزون في الفسطاط، وهذا ما يبرر واقع أنه لم يتبق من أثر الجامع القديم الذي بناه عمرو بن العاص سوى موقعه واسمه.

اختار الجنود موقع مسجدهم أمام بساتين الفسطاط، وحددوا أبعاده بـ 29×17م (323 متراً)، وشيدوه من الطوب اللبن، وصنعوا له ستة أبواب، وحمل سقفه المنخفض المكون من الجريد والطين على سوار من جذوع النخل، وفرشت أرضه بالحصباء، وكانت جدرانه بلا طلاء، ولم يكن له صحن، وألحقوا به بئرا للوضوء. وقيل إن عمرو بنى منبراً عالياً للخطابة فأمره عمر بن الخطاب بإزالته لكي لا يكون الخطيب أعلى من المصلين.

واختار عمرو موقعاً في شرق الجامع ليبني بيته، وجعل بينه وبين سور الجامع طريقاً عرضه 7 أذرع.

الاحتياجات الحضارية هي التي طوّرت هيئة الجامع المعمارية بما يناسب مكانته التي تنامت شيئاً فشيئاً عبر التاريخ، حيث صار مع مرور الزمن جامعةً إسلامية ومنارة للعلم ومقصداً للدارسين، قبل أن توجد جوامع الأزهر والزيتونة والقيروان. وكان للجامع أهمية روحية كبيرة للمصريين عبر التاريخ، ومنذ زمن الفاطميين وهناك تقليد رسمي سنوي لم يتخلَ عنه الولاة والخلفاء والفقهاء وكبار رجال الدولة والأعيان حيث كانوا يذهبون إليه لأداء صلاة الجمعة اليتيمة (الأخيرة) في شهر رمضان.

اتسعت مساحة الجامع إلى أن وصلت حالياً إلى 13556,25 متراً (112,5 × 120,5 متراً)، وكانت مراحل التطوير مبكرة، فيقال إن معاوية كلف واليه على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري سنة 673 م بأن يقوم بتوسعة الجامع ويقيم فيه أربع مآذن. ولكن في زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قام الوالي قرة بن شريك بهدم الجامع الأصلي سنة 93هـ/710م لكي يزيد مساحته، ثم أنشأ فيه محراباً مجوفاً، ومنبراً خشبياً ومقصورة، وجعل له سبعة أبواب. وأيضاً حدث تطوير كبير في أيام الخليفة المأمون العباسي سنة 212هـ/827 م ووالياه على مصر عبد الله بن طاهر.

أما العصر الفاطمي فقد بلغ فيه الجامع شأنا عظيماً، حتى وصفه الرحالة الفارسي «ناصر خسرو» أيام المستنصر الفاطمي؛ فقال: «إنه قائم على أربعمائة عمود من الرخام، والجدار الذي عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض كتبت عليها آيات من القرآن بخط جميل. وتحيط بالمسجد الأسواق من جهاته الأربع، وعليها تفتح أبوابه». ويضيف خسرو متحدثاً عن نشاط الجامع بأنه «كان يوقد في ليالي المواسم أكثر من سبعمائة قنديل، ويفرش بطبقات من الحصير الملون بعضها فوق بعض، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل. وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة، ولا يقل من فيه في أي وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء، والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها».

وتعرض الجامع لنكبات عديدة كالحرائق والزلازل وأصابه الإهمال في فترات عديدة، لكنه كان يحظى بالترميم والتطوير واستعادة رونقه من حين لآخر، وحين حكم صلاح الدين الأيوبي مصر قام بترميمه وجدد بعض أجزائه مثل صدر الجامع والمحراب وأعاد بياض جدرانه. وفي عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون أعيد إعمار الجامع بعد أن تضررت جدرانه بزلزال 702ه. أيضاً قام مراد بك والي مصر العثماني، بعملية ترميم كبيرة بعد أن مالت أعمدته وسقطت أواوينه، وفي عصر مراد بك شيدت منارتان، منهما المنارة الباقية الآن، وهي ذات تصميم بسيط، ولها قمة مخروطية. وتم الفراغ من إصلاحات مراد بك في أواخر شهر رمضان سنة 1212ه/1797م.

باختصار

الاحتياجات الحضارية هي التي طوّرت هيئة الجامع المعمارية بما يناسب مكانته التي تنامت شيئاً فشيئاً عبر التاريخ

■■■

يقال إن معاوية كلف واليه على مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري سنة 673 م بأن يقوم بتوسعة الجامع ويقيم فيه أربع مآذن

■■■

تعرض الجامع لنكبات عديدة كالحرائق والزلازل وأصابه الإهمال في فترات عديدة، لكنه كان يحظى بالترميم والتطوير

وأخيراً

لماذا لا تعشق وأنت بصحة جيدة؟

خطيب بدلة

قبل اختراع الهاتف المحمول (الموبايل) المزوّد بكاميرا قادرة على تصوير مقاطع فيديو، كانت تفوتنا أشياء جميلة تحدُث في زمانٍ ما، ومكان ما، ثم تمضي وتتلاشى لعدم وجود كاميرات تلفزيونية في متناول الحاضرين. أضرب مثلاً بفيديو مصوّر بكاميرا «الموبايل»، تتداوله مواقع التواصل منذ أيام، فيه مجموعة من الرجال والنساء المجتمعين في منزل أحدهم، يغنّون ارتجالاً، من دون مرافقة آلات موسيقية، ولا حتى إيقاع. أصواتهم ليست جميلة وحسب، بل خارقة. دفعني الفضول إلى أن أعرف أسماءهم، وبالبحث وجدتُ أنّ أحدهم تنزاني، الشيخ يحيى بيهاكي حسين، وإحداهم اسمها سهيلة بهجت، بالإضافة إلى شيخ فاقد البصر، ورجل ذي قبعة طرازها أوروبي، وهو الذي بدأ يغني مقطعاً من قصيدة أحمد شوقي التي لحّنها وغناها الهرم الرابع محمد عبد الوهاب (وغنّاها عادل مأمون) «مُضناك جفاه مرقدُه» وصار الحاضرون يتناوبون على أداء المقطع الأخير منها بطريقة «السلطنة» أي عندما يسرح المغنّي في الطرب حتى يبلغ ذرى عالية من الحب، والوجد، والتحليق. شاهدت المقطع أكثر من مرّة، ولعلّ تكرار المشاهدة جعلني أفكر في قول شوقي: مولايَ وروحي في يده/ قد ضيعها سلمت يَدُهُ.. وتساءلت: ألا يتضمّن التعبير عن الحب هنا مبالغةً تصل إلى حدود الامّحاء والعدمية؟ يعني، أنا أحب حبيبي، وأضع روحي في يده، ولكن هل يعقل أن أشكره لأنه أضاعها؟ من هنا، تسللتْ إلى ساحة تفكيري أسئلةٌ كثيرة تتعلق بالطريقة التي صيغت فيها نسبةٌ لا يستهان بها من أشعار الأغاني العربية. المذهل في تلك الأشعار أنه قلما يبقى العاشقان (كلاهما) على قيد الحياة، يتبادلان الحب على نحو طبيعي، ومتكافئ، بل يجب أن يموت أحدهما في سبيل الآخر، عامداً، متعمّداً، منتحراً... وهذا تجده ضمن مستويات متعدّدة، ابتداء من الأغاني الشعبية التي يقول فيها الحبيب لحبيبته «ومن الشباك لأرمي لِكْ حالي». ولعل أول ما يخطر بالبال أنْ يكون الشباكُ عالياً، فينزل العاشق الولهان على الأرض جثة هامدة. مروراً بأغنية صباح فخري «يا حادي العيس في ترحالك الأَجَلُ»، يعني إذا رحلت الصبية ضمن قافلة من «العيس» فإن عاشقها يموت... ولعلّ أكثر ما يعبّر عن هذا الامّحاء قصيدة بشارة الخوري (الأخطل الصغير)، التي لحّنها وغنّاها موسيقار الأزمان فريد الأطرش وتبدأ بعبارة: عش أنتَ، إني متُّ بعدك.

تجنح بعض الأغاني العربية نحو العنف، من دون إرادةٍ من مؤلفها، بل لعلّ القافية هي التي تغريه باستخدامها، كالأغنية الفولكلورية الشامية: «يابو عيون اللويزي/ تجرح بحدّ قزيزي»... وثمّة «عيون» لا تكتفي بالجَرح، بل وتقتل، فموفق بهجت يغني: «ما قتلتني إلا العين الكحلاوية»، ووديع الصافي: «قتلوني عيونا السود»، وهناك مقطع من أغنية «يا ويل حالي» يقول فيه المطرب «ما قتلني غير أبو المَشْلح/ يا دهب يلطم على المَدبح». وثمّة أغنيات تحكي عن الاشتباك بين العشاق، أو بسبب العشاق، كالأغنية التي تغنيها فيروز وصباح فخري، كلّ بأسلوبه: «تحت هودجها وتعالجنا، صار سحب سيوف يا ويل حالي». وهناك أغنية فولكلورية أردنية تؤدّيها سميرة توفيق «يا المرتكي ع السيف سيفك جرحني». وأما قصيدة «يا من حوى ورد الرياض بقدّه»، المنسوبة لشاعر أندلسي يلقب «ابن اللبانة» ففيها معنيان خطيران جداً يبيح أحدُهما القتلَ، والثاني العبودية: «إن شئت تقتلني فأنت محكمٌ، من ذا يطالبُ سيداً في عبده؟».

> تجنح بعض الأغاني العربية نحو العنف، من دون إرادة من مؤلفها، بل لعلّ القافية هي التي تغريه باستخدامها

الاعتراض الأساسي الذي لا بد أن يواجه هذه الأسئلة والتداعيات أن هذا يحصل باسم الحب. صحيحٌ من حيث المبدأ، لكنّه يتعارض، في الحقيقة، مع الحبّ الطبيعي، المتكافئ، ويحيلنا إلى ظاهرة الوقوف على أطلال الحبيبة في الشعر الجاهلي التي سخر منها الشاعر المجدّد أبو نواس ببيت شعر لا يمكن أن يُنسى:

قل لمن يبكي على رسم درس/ واقفاً ما ضَرَّ لو كان جلس؟

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**